اغتيال كامل مروة: بين العدالة والحقيقة

سيّداتي وسادتي،
أيّها الحضورُ الكريمُ،

يشرّفني أن أقفَ أمامَكم اليومَ، متحدثًا عن واحدةٍ من ابرز الجرائمِ السياسيةِ في مرحلة ما بعد الاستقلال في لبنان:
جريمةُ اغتيالِ والدي، كامل مروّة،
مؤسّسَ جريدةِ "الحياةِ"،
وأحدِ روّادِ الصحافةِ في العالمِ العربيِّ خلال القرنِ الماضي.

أقفُ أمامَكم، وقلبي يعتصرُ ألمًا،
لأنّ ما كان يُفترَضُ أن يكونَ خاتمةً، ما كان إلا بدايةً.
أكثرُ من نصفِ قرنٍ مرَّ على اغتيالِ والدي،
ولم تتوقّفْ الاغتيالاتُ،
وما زالَ الإفلاتُ من العقابِ هو القاعدةُ، لا الاستثناءُ.

الاغتيالُ السياسيُّ لا يقتلُ الأفرادَ فقط،
بل يُخمدُ أيضًا النقاشَ العام،
ويُرهبُ أهلَ الفكرِ والمعرفةِ،
فينكفئون عن المشاركةِ في الحياةِ السياسيةِ،
ويَحِلُّ مكانَهم أهلُ البطشِ والمصلحةِ...
ونحنُ اللبنانيونَ نعرفُ تمامًا ما يعني ذلك.

لبنانُ بعدَ الاستقلالِ عرفَ فترةً ذهبيّة،
شاركت فيها الصحافةُ إلى جانبِ رجالِ دولةٍ كبارٍ في بناءِ الكَيانِ.
ولكنه، سرعان ما تحوّلَ القتلُ إلى وسيلةٍ لحسمِ الخلافاتِ وتصفيةِ الحساباتِ،
ثم دخلت القوى الإقليمية والدولية طرفًا،
فزادتِ البلاءَ بلاء.
ومع غيابِ المحاسبة، تكرّرت الجرائمُ،
إلى أن أصبحت سِمةً مقيتةً من سماتِ الحياةِ السياسيةِ اللبنانيةِ... ولا تزال.

حينَ دعتني الصديقةُ رشا الأميرُ إلى هذا اللقاءِ،
باغتتني بالقولِ:
"أنتم، آلُ مروّةَ، محظوظون... لأنّ قضيةَ والدِكم من القضايا النادرةِ التي وصلت إلى المحكمةِ".
ولكن حتى تلك المحاكمةَ، لم تكن محاكمةً شفافةً ولا نزيهة.
إذ بُرئَ الرأسُ المدبّر، وصدرَت أحكامٌ شكليةٌ على مشاركَين آخرَين، واقتصرَ القصاصُ على المنفّذِ،
الذي لم يمضِ وقتًا طويلًا في السجنِ،
وفرّ مع بدايةِ الحربِ الأهليةِ.

ولو كان المحامونُ الكبارُ الذين تولّوا ملفَّ اغتيالِ والدي – الأساتذةُ محسن سليم ونصري المعلوف وإدمون ربّاط – لو كانوا بيننا اليوم،
لأكّدوا أنّ الهدفَ الأولَ من المحاكمةِ آنذاك لم يكن الوصولَ إلى الحقيقةِ،
بل إبعادُ التُّهمةِ عن الجهةِ التي أمرت بالجريمةِ.

والدتي، سلمى البيسار هي من تولّت متابعةَ المحاكمةِ إذ كنّا جميعًا، نحن أولادَ كاملَ مروّةَ الخمسةَ، لا نزالُ قاصرينَ.

ولها الفضلُ الأول والأكبرُ في إبقاءِ القضيةِ حيّةً، بشجاعتِها وثباتِها.

لكنّ الخلفيّةَ الحقيقيةَ للاغتيالِ بقيت طيَّ الكتمانِ والتعتيم لسنواتٍ،

وكانت كلُّ محاولةٍ لكشفِها تُواجَهُ أولًا بالتضليل، ثم تنتهي بالتهديد.

حتى تحوّلت قضيةُ كامل مروة إلى ما يُشبهُ المحرّماتِ التي لا تُناقشُ إلا همسًا.

مرت الأيامُ، وكبُرَ في داخلي الشعورُ بالغبنِ والظلمِ، إلى أن قررتُ، بعد أربعين عامًا من الجريمةِ، أن أبحثَ عن الحقيقةِ بنفسي.

فكان لقائي مع الصحافيّ نجم الهاشم الذي سيتحدثُ من بعدي، وبدأنا معًا تحقيقًا دام خمسَ سنواتٍ، وشمَلَ أكثرَ من ثمانين مقابلةً.

النتيجةُ لم تكن مُفاجِئةً، بل أكّدت المؤكدَ.
القاتلُ لم ينفذْ جريمتَهُ بدافعٍ شخصي، كما صورتْه الروايةُ الرسميةُ،
انما كان الحلقةَ الأخيرةَ في سلسلةٍ ضمّت رجالَ مخابراتٍ ودبلوماسيين وأشقياء.
وكانت هذه السلسلةُ تصلُ بالتتابعِ إلى رأسِ الهرم،
حيث كان يلوحُ طيفُ الرئيسِ جمال عبد الناصر.

الاغتيالُ وقع في منتصف الستينياتِ في مناخٍ عربيّ مأزومٍ، وفي ظلِّ أولِ حربٍ باردةٍ عَرِفَتها الدولُ العربيةُ.
كانت المواقفُ آنذاك متضادةً وحادةً،
وكان والدي، كصحافي، يتلمّسُ مسارَه بين الألغام،
متسلحًا بالموضوعيةِ والاعتدال... إلى أن جاءَ الأمرُ بقتلهِ.

أكانتْ لحظةَ غضبٍ عند الآمرِ الناهي؟
أم نتيجةَ تقريرٍ مخابراتيٍ مفبرك؟
لا يَهم...

فالسؤالُ يبقى: ماذا جنى الرئيسُ عبد الناصر من ذلك؟ بماذا نفعَه هذا الاغتيال؟
فالنكساتُ التي مُني بها لاحقًا كانت جميعُها من صنعِ قراراتِه وخياراتِه وحدَه.
والرأيُ الذي اغتالهُ، ربما كان سبيلاً لتفادي بعضَ تلكَ النكسات.

على أيةِ حال، وبعد انكشافِ الحقيقةِ بتفاصيلِها، شعرتُ بأنني قد تحرّرتُ أخيرًا من ثِقلِ الذكرى، وحِملِها،
وبدأتُ فورًا أنشرُ ما توصّلنا إليه، تصحيحًا للتشويهِ الكبيرِ الذي كان طالَ صاحبَ "الحياة".
وأظنّ أننا نجحنا، إلى حدٍّ كبير.

إلى عائلاتِ الشهداءِ، أقول:

- المحاكماتُ ليست دائمًا عادلةً، لكنَّ مجرّدَ إجرائها يَمثّلُ شكلاً من أشكالِ المحاسبة، فتمسّكوا بحقِّكم بها.

• ثانيًا - الحقيقةُ... هي التي تُحرّر. فابحثوا عنها بأنفسِكم ولا تنتظروا أحدًا... والزمنُ حليفُكم.

• ثالثًا - طالبوا بإقرارِ قانونٍ يُجرّمُ التخوين... فالتخوينُ هو أخطرُ سلاحٍ في يدِ العابثين.

وإلى أصحابِ القرار، أقولُ:

• احموا القضاءَ ولا تقفوا على الحياد، فالعدالةُ ليست ترفًا، بل شرطٌ لنجاة لبنان.

ختامًا،

إنني اليوم، لا أستذكرُ والدي فقط،

بل أستذكرُ أيضاً كلَّ قادةِ الرأي ورجالَ الدولةِ، الذين سقطوا ظلمًا...

وآخرَهُم كان لقمان...

تحيّةٌ من القلبِ لهم...

وشكرًا لإصغائكم...